الأخلاق

الأَخلاق الإِسلامية على رأْس القيم الرفيعة. . وهى محور أَساسى ترتكز عليه إِنسانية الإِنسان. . وهناك قيم كثيرة فى الإِسلام، جاءَت للحفاظ على المسلم، وحرصاً على إِرادته وشخصيته. . إِلا أَن قيمة الأَخلاق تفضل غيرها.

والأَخلاق جمع خلق. . . وقد جاءَ فى القرآن الكريم، قوله تعالى فى سورة القلم: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم: ٤]. وجرى ذلك كثيرا فى اللسان العربى قال سالم ابن وابصة:

يا أَيها المتحلى غير شيمته ... إِن التخلق يأْتى دونه الخلق

وتطلق الأَخلاق لغة: على الطبع والسجية والعادة والمروءَة والدين وإِذا كانت الكتب اللغوية تطلق الخلق على الطبع، وعلى السجية فهل هناك فرق بين المدلولين، أَم هما من الألفاظ المترادفة؟ يرى كثير من الباحثين اللغويين أَن هناك فرقاً بينهما. وهو أَن الطبع يطلق على الخلق الفطرى، فالطبع بسكون الباء هو الجبلة التى خلق الإِنسان عليها. . والسجية تطلق على الخلق الفطرى والخلق المكتسب إِذا أَصبح عادة. . ولعل قول حسان بن ثابت مما يؤيد ذلك :

سجية تلك فيهم غير محدثة ... إِن الخلائق فاعلم شرها البدع

والتخلق: تكلف إِظهار ما ليس فى الفطرة. وفى حديث عمر رضى الله عنه «من تخلق للناس بما يعلم الله أَنه ليس من نفسه سانه الله».

وكلمة (خلق) بضم الخاء واللام، وردت فى القرآن الكريم مرتين: الأُولى فى سورة القلم: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ والثانية فى سورة الشعراء: ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾.

الأُولى جاءَت فى مقام المدح. والثانية فى صف ما درج عليه الأَولون. والأُولى جاءَت معيارا لما ينبغى أَن يكون والثانية أَتت وصفا لما هو كائن. أَما ما

ينبغى أَن يكون فقد جاءَ للمسلمين من الله سبحانه وتعالى، لا من أَحد من الناس، ولا من الشرق ولا من الغرب، لا من أَى فكر ابتداعه البشر وما جاءَ من عند الله فقد كان ولايزال كافياً وتاماً، نزل به الروح الأمين على محمد ﷺ وأَمر رب العزة أَن يكون الرسول هو المطبق العملى لآيات القرآن، وذلك لأَنه القدوة الحسنة للمسلمين قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾﴾[1] يقول ابن عباس: يعنى إِذا جمعناه وأثبتناه فى صدرك يا محمد فاعمل به.

فكان سلوك النبى فى الحياة الدنيا، تفسيرا عمليا للقرآن الكريم، وحين سئلت عائشة رضى الله عنها عن خلق الرسول ﷺ قالت: «كان خلقه القرآن» يقول الله سبحانه وتعالى موجها ومنبها: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾[2].

وجاءَ فى كتاب «أَدب الدنيا والدين» للماوردى: أَن النبى ﷺ روى عنه أَنه قال: «إِن الله تعالى اختار لكم الإِسلام دينا فأَكرموه بحسن الخلق والسخاء فإِنه لا يكمل إِلا بهما».. وقال عليه الصلاة والسلام: «أَحبكم إِلى الله أَحسنكم أَخلاقاً الموطئون أكنافا الذين يأْلفون ويؤلفون».

والأَخلاق فى الإِسلام عمل يعمل لا كلاما يقال، عمل مبعثه القلب لا كلام مكانه اللسان.. وهى أَيضاً سلوك يهدى إِلى طريق الحق.

قال بعض الحكماء: الحسن الخلق من نفسه فى راحة، والناس منه فى سلامة.. والسيءُ الخلق، الناس منه فى بلاء، وهو من نفسه فى عناء، فإِذا حسنت أَخلاق الإِنسان كثر مصافوه، وقل معادوه، وتسلهت عليه الأُمور الصعاب، ولانت له القلوب الغضاب.

---

(١) القيامة: ١٨.

(٢) الاحزاب: ٢١.

قال العربى:

إذا لم تتسع أخلاق قوم تضيق بهم فسيحات البلاد

إذا ما المرءُ لم يخلق لبيبا فليس اللب عن قدم الولاد

وحسن الخلق : أن يكون سهل العريكه، لين الجانب، طلق الوجه، قليل النفور، طيب الكلمة، حلو اللسان، ولم تقف الأخلاق فى الإسلام عند هذا الحد - كما يظن البعض - بل نظمت علاقة الإنسان بربه تبارك وتعالى ونظمت علاقة الإنسان بنفسه، وعلاقة الإنسان بالكون، وعلاقة الإنسان بالإنسان، خذ مثلا من تنظيم علاقة الإنسان بربه. قال تعالى: ﴿**وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ**﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿**أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا**﴾[٢].

واقرأْ فى علاقة الإنسان بنفسه قول الله تعالى: ﴿**وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[٣]. وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ**﴾[٤].

واقرأْ فى علاقة الإنسان بالكون قول الله تعالى:﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ**﴾[٥]. والأمثلة عن كل علاقة

---

(١) الأعراف: ٢٠٥

(٢) الإسراء: ٧٨، ٧٩

(٣) الأعراف: ٢٠٠

(٤) الأعراف: ٢٠١

(٥) آل عمران: ١٩٠

نظمتها الأخلاق فى الإسلام كثيرة.. وقد فاضت بها آيات القرآن الكريم وهى ميسرة لمن أراد أن ينهل.

والأخلاق فى القرآن الكريم تهيمن على جميع النشاط الإنسانى فى الحياة ليتمكن الإنسان من الوصول بإنسانيته إلى خير ما قدر، وخذ من الأخلاق فى القرآن: أدب الحديث.. تجد أن القرآن يأمر فى هذا الباب، حتى بانتقاء الألفاظ الرقيقة.. قال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**﴾[1].

وقال تعالى: ﴿**فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**﴾[2].

وقال تعالى: ﴿**لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا**﴾[3]. وجملة ما يراد أن يقال إن الأخلاق التى جاء بها القرآن شملت الحياة كلها فأمرت بالتعاون والمودة والعفة والرحمة والإحسان والصدق، والإخلاص والاستقامة والنظافة والصلاح والإخاء، والعفو والصبر والثبات والشجاعة وحسن الضيافة والتضامن والتكافل والطهر والصفح والعفو والحب والتسامح.. ولم يكتف القرآن الكريم بهذا بل تأكيدا لضبط السلوك وأخلاقيات المسلم.. نهى عن الاعتداء، والعدوان، والبهتان والظلم والبخل والغضب واللمز والحسد والنفاق والخداع والاسراف والغش وقتل النفس بغير حق والكذب ولغو الحديث وشهادة الزور والخلاعة والميوعة والابتذال والارتخاص والخنفسة والعهارة

(١) فصلت: ٣٣ - ٣٥.
(٢) الحجرات: ٦.
(٣) النساء: ١٤٨.

والنميمة، والغيبة والخيانة والسرقة والخصومة والسخرية والتنابز والتدابر، والتباغض مما لو فصلته لوجدته كله فى القرآن الكريم.

فالأَخلاق الإِسلامية جاءَت لإِعلاء كلمة الحق وإِقامة ميزان العدل فى الخلق.. ولا يمكن لأُمة أَن تحيا بدون أَخلاق.. ولا قيمة للعلم ولا حضارة بدون أَخلاق.

وهذه حضارة كثير من المجتمعات، قد أفلست رغم التقدم العلمى الهائل الذى حصلت عليه من تكنولوجيا العصر.. فقد ازدادت تلك المجتمعات ضلالا.. وانتشرت فيه نوادى العرى والعربدة والفسق والدعارة والضياع.. وتكاثرت الجرائم بشكل بالغ، وزاد عدد الأَطفال غير الشرعيين وضاعت العقول بين الطاس والكاس.. وفقد الناس كل إحساس بالاستقرار والأَمن .. ولم يعد هناك طعم للسعادة وصدق الشاعر العربى فى قوله:

فإنما الأُمم الأَخلاق ما بقيت ... فإِن همو ذهبت أَخلاقهم ذهبوا

فالحضارة العلمية بدون أَخلاق، قد تتدهور وتنتهى.. وكم من الحضارات سادت ثم بادت بسبب الانتهاك العملى لحدود ما شرع الله، وقد حدثنا القرآن الكريم عن كثير من هذه الظواهر.. ومن هنا كان علينا أَن نحافظ على الأَخلاق الإِسلامية التى جاءَ بها القرآن الكريم لنصل بالحضارة الإِسلامية فى يقظتها الواعية إِلى خير الإِنسانية. ولا يصح أَبداً أَن نمسخ أَنفسنا هذا المسخ المشين فنطيل شعر الرؤُوس أَو نعلق السلاسل فى الرقاب، أَو نلهث وراءَ الجنس لهث الكلاب.. ولا يصح لمسلم عاقل أَن يجرى وراءَ التقليد الأَعمى «لموضات» العصر.. وكل ما هب ودب.

* * *